أبشروا يا أهل الشام.. فإن نصر الله قريب!

الكاتب : محمد علي الشيخي

التاريخ : 22 فبراير 2012 م

المشاهدات : 11915

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

قد يستبعد بعضنا النصر، فيقول: كيف ينتصر الشعب السوري الأعزل وقد تحزبت مع جيش بشار الأحزاب الظالمة من الفرس والروس، والقتال يدور في معظم المدن السورية، منذ أحد عشر شهراً، والقتلى والجرحى بالألوف، والمعتقلين والمشردين أضعاف ذلك؟!

وقد يقال إن التفاؤل بالنصر والحالة هذه ليس له رصيد على أرض الواقع فكيف يمكن لشعبٍ أعزل لا يملك من المقومات سوى الحناجر والأيدي والقليل من الأسلحة الخفيفة أن يصمد أمام جيش مدجج بالسلاح ومُسَاندٍ من عدة جهات وقُوى، كيف يصدق هذا التفاؤل؟ وما هذا الكلام إلا مجرد تغرير بهذا الشعب المكلوم المغلوب، وكلام نظري بعيد كل البعد عن الواقع؟!.

فأقول واثقاً بوعد الله: لا شك في نصر الله لعباده المؤمنين عموماً وفي سوريا اليوم خصوصاً، ولكنني أسأله ـ عز وجل ـ أن يعجل نصره الذي وعد الله به في قوله ـ سبحانه وتعالى ـ: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}.

نعم! هدمت المساجد ودكت المنازل بالمدافع والصواريخ، ولكن من ظن أن الله القوي العزيز لن ينتقم ممن هدم بيوته، ولطخ بدماء المصلين جدرانها؟! وأحرق المصاحف ودنسها بالأقذار! وقتل الأطفال والنساء ومُثِّل بهم. من ظن أن هؤلاء المجرمون يفلتون من انتقام الله فقد أساء الظن بالله، حاشاه وهو القائل: {وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ}.

وقد يقول قائل: ليس بالضرورة أن يكون انتقام الله عاجلاً فيكون الأمر مجرد تفاؤل أو مزايدة لا رصيد لها من الواقع.

فأولاً: لا شك أن الله ـ تعالى ـ قدر الأمور بأسبابها، ومن ذلك نصر المؤمنين على عدوهم وربط ذلك بأسباب عدة أهمها: الإيمان بالله وإقامة أركان الدين، وطاعته ـ تعالى ـ واجتناب معصيته؛ عندئذٍ يهيأ الله لهم النصر، ويحقق لهم وعده كما قال ـ سبحانه ـ: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ* الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ}. ثم بيّن الله ـ تعالى ـ الذين وعدهم النصر فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ}.

فنصر الله للمؤمنين حق لا شك فيه فقد قال ـ سبحانه وتعالى ـ: {وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ}.

ومنها: إعداد القوة، كما قال ـ تعالى ـ: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ.. }.

ولكن الذي يقيس الأمور بالمقياس المادي لا يفقه قول الله ـ تعالى ـ: {كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ}. وإن كان الله ـ سبحانه ـ يبتلي عباده بما يشاء اختباراً وتمحيصاً لهم ثم يجعل العاقبة لهم كما في قوله ـ سبحانه ـ: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ}. وقوله ـ عز وجل ـ: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}.

وثانياً: من تأمل الوقائع التاريخية الفاصلة، وعلم ميزان القوى فيها، وعرف كيف كانت نتائجها؛ تبيّن له أن النصر ـبإذن اللهـ سيكون حليف المسلمين في سوريا، فقد تهيأ لهم عدد من أسباب النصر، ولم يبق إلا أن ينجز الله لهم وعده، فهو ـ سبحانه ـ القادر على كل شيء.

وسوف أستشهد على ذلك بنقل نبذة عن ثلاث معارك فاصلة دارت رحاها على أرض الشام كان النصر فيها للمسلمين رغم الفارق الكبير في العدد والعتاد.

فأولها معركة اليرموك: كان عدد جيش المسلمين فيها ما بين ستة وثلاثين إلى أربعين ألفاً، بينما بلغ فيها جيش الروم مائتين وأربعين ألف، ثمانون ألفاً منهم مسلسلٌ بالحديد والحبال، وثمانون ألفاً فارس، وثمانون ألفاً راجل.

ولما التقى الصفان لم تر إلا مخاً ساقطاً، ومعصماً نادراً، وكفاً طائرة. ثم حمل خالد بمن معه من الخيالة على الميسرة التي حملت على ميمنة المسلمين فأزالوهم إلى القلب فقتل من الروم في حملته هذه ستة آلاف منهم. ثم قال: "والذي نفسي بيده لم يبق عندهم من الصبر والجلد غير ما رأيتم، وإني لأرجو أن يمنحكم الله أكتافهم". ثم اعترضهم فحمل بمائة فارس معه على نحو من مائة ألف فما وصل إليهم حتى انفض جمعهم، وحمل المسلمون عليهم حملة رجل واحد، فانكشفوا وتبعهم المسلمون لا يمتنعون منهم.

ثانيها معركة حطين: التقى صلاح الدين بالصليبيين في تل حطين الذين جاؤوا بحدهم وحديدهم في خلق لا يعلم عدتهم إلا الله ـ عز وجل ـ، يقال كانوا خمسين ألفاً، وقيل ثلاثاً وستين ألفا، وجيش صلاح الدين قرابة أثنا عشر ألفاً، فأقبل صلاح الدين ففتح طبرية وتقوى بما فيها من الأطعمة والأمتعة وغير ذلك، وحاز البحيرة في حوزته ومنع الله الكفرة أن يصلوا منها إلى قطرة، حتى صاروا في عطش عظيم، وجاء العدو المخذول، في جمعٍ من ملوكهم، فتواجه الفريقان وتقابل الجيشان، وأسفر وجه الإيمان وأظلم وجه الكفر والطغيان، ودارت دائرة السوء على عبدة الصلبان، وذلك عشية يوم الجمعة، فبات الناس على مصافهم، وأصبح صباح يوم السبت الذي كان يوماً عسيراً على العدو وذلك لخمس بقين من ربيع الآخر من سنة 583هـ فطلعت الشمس على وجوه الفرنج واشتد الحر وقوي بهم العطش، وكان تحت أقدام خيولهم حشيش قد صار هشيماً، وكان ذلك عليهم مشؤوماً، فأمر السلطان برمي بالنفط، فتأجج نارًا تحت سنابك خيولهم، فاجتمع عليهم حر الشمس وحر العطش وحر النار وحر السلاح وحر رشق النبال، وتبارز الشجعان، ثم أمر السلطان بالتكبير والحملة الصادقة فحملوا وكان النصر من الله ـ عز وجل ـ، فمنحهم الله أكتافهم فقُتِل منهم ثلاثون ألفاً في ذلك اليوم، وأسر ثلاثون ألفاً من شجعانهم وفرسانهم، وكان في جملة من أسر جميع ملوكهم.

وثالثها معركة عين جالوت: فبعد أن اكتسح التتار العراق ودمروا بغداد ساروا إلى الشام فعاثوا فيها تقتيلاً وفساداً، ثم أرسل

هولاكو وهو نازل على حلب جيشاً مع أمير من كبار دولته يقال له: كتبغا، فلما بلغ سلطان مصر المظفر قطز ما كان من أمر التتار بالشام وأنهم عازمون على الدخول إلى ديار مصر بعد تمهيد ملكهم بالشام، بادرهم قبل أن يبادروه وبرز إليهم وأقدم عليهم قبل أن يقدموا عليه، فخرج في عساكره حتى انتهى إلى الشام واستيقظ له عسكر المغول وعليهم كتبغا، فأشير عليه بأنه لا قِبل له بالمظفر حتى يستمد هولاكو فأبى إلا أن يناجزه سريعاً، فساروا إليه وسار المظفر إليهم، في يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان سنة 658هـ فاقتتلوا قتالاً عظيماً، فكانت النصرة ـ ولله الحمد ـ للإسلام وأهله، فهزمهم المسلمون هزيمة هائلة وقُتِل أمير المغول كتبغا وجماعة من بيته، واتبعهم الجيش الإسلامي يقتلونهم في كل موضع، واتبع الأمير بيبرس وجماعة من الشجعان التتار يقتلونهم في كل مكان، إلى أن وصلوا خلفهم إلى حلب، وهرب من بدمشق منهم فتبعهم المسلمون من دمشق يقتلون فيهم ويستفكون الأسارى من أيديهم، وجاءت بذلك البشارة ولله الحمد على جبره إياهم بلطفه فجاوبتها دق البشائر من القلعة وفرح المؤمنون بنصر الله فرحاً شديداً، وأيد الله الإسلام وأهله تأييداً. [بتصرف واختصار من البداية والنهاية لابن كثير].

وبعد؛ فما نقلته من هذه الأخبار إلا تذكرة وتسلية لإخواني في الشام، وبشارة بنصر الله ـ تعالى ـ القريب إن شاء الله، فسترفرف أعلام النصر هنا في دمشق، وهناك في دير الزور، وفي درعا وحلب وفي حمص وحماة وعلى الشام كله. فالبشائر خير شاهد، وأصدقها رجوع الناس إلى دين الله، فتأملوا تلك الوجوه النيرة والتكبيرات المتوالية: الله أكبر الله أكبر.. !

وأصدق تلك البشارات قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: ((طوبى للشام! طوبى للشام!)) قيل: "ما بال الشام"؟ قال: ((تلك ملائكة الله باسطو أجنحتها على الشام)). رواه الترمذي وأحمد والحاكم وصححه ووافقه الذهبي وصححه الأرنؤوط.

وقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: ((إن الله ـ عز وجل ـ قد تكفل لي بالشام وأهله)). رواه أبو داود وابن حبان والحاكم وقال صحيح، وصححه الألباني في الترغيب والترهيب.

ومع هذا وذاك فالله ـ عز وجل ـ يقول: {وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}. ويقول ـ سبحانه ـ: {لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}.

اللهم انصر عبادك المؤمنين في الشام، وثبت أقدامهم، واجمع على الحق كلمتهم، يا ذا الجلال والإكرام.

المصدر: موقع لجينيات

المصادر: